مذهب الملكات العقلية

وأثره فى التربية والتعليم

للاستاذ محمد مظهر سعيد

أستاذ علم النفس بمعهد التربية وكلية أصول الدين

بينت فى مقالين سابقين كيف نشأ مذهب الملكات، وكيف تطور، وذكرت شيئاً عن تاريخه منذ بدء نشأته أيام أفلاطون إلى أن اندثر فى أوائل هذا القرن بعد أن أثبت علم النفس التجريبى الحديث فساده وبطلانه، وسأبين الآن كيف انتقل من حظيرة الفلسفة إلى دائرة التربية والتعليم حتى اتخذه المربون والمعلمون أساساً لوضع مناهج الدراسة قروناً طويلة متعاقبة، لا فى عهد اليونان والرومان فحسب، بل وفى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر فى كل أنحاء أوروبا، ويكفى للدلالة على مبلغ خطورة مثل هذا المذهب الخاطىء الذى يقع فيه الناس جيلا بعد جيل، ويسلمون بصحته عن عقيدة متوارثة، أن الكثيرين من كبار فلاسفة القرون المتأخرة ورجال التربية أمثال (كانت) و(كومينيوس) و(فروبل) قد وقعوا فيه بالفعل وتأثروا به، ولا زال واضعو البرامج فى المدارس المصرية إلى الآن يعملون به.

أفلاطون:

قلنا: إن أفلاطون افترض وجود ثلاث نفوس للانسان، كل منها تباشر عملا خاصا يتمثل فى ناحية من نواحى حياته العقلية والنفسية، وتتطلب مرانا خاصاً لتقوى حتى تصل إلى الكمال. فكان طبيعياً أن يفترض أن التربية — مادامت على حد قوله لاتخلق فى النفس شيئاً جديداً، وإنما تهذب القديم الكائن بالفعل — هى مجرد تدريب النفس وتقويتها وتهذيبها حتى تصل إلى معرفة الحق والتحلى بالكمال الخلقى.

فينبغى أن تقدر قيمة كل علم يتعلمه الانسان لا من ناحية فائدته العملية فى حياة الانسان ولزومه له، وإنما من ناحية أثره فى تهذيب النفس، ولذلك أخرج المهن والأعمال اليدوية والعلوم العملية من نظام التربية الذى وضعه لجمهوريته، وجعلها وقفاً على العبيد لمجرد أنها نفعية، واعتبر الفن وسيلة للتسلية، فأشار بتعليمه للشبان فى أوقات فراغهم، بشرط أن لايتقنوه لأن الاتقان من شأن العبيد، ولا أدل على استنكاره للناحية العملية للتعليم من قوله فى حديث سقراط لصديقه (جلاوكن): «يضحكنى منك خوفك الظاهر من اتهام الجمهور إياك بأنك توصى بتعليم علوم

عديمة الفائدة — وتجاريهم فى زعمهم هذا — وقد غاب عنك أن هذه العلوم — الفلسفية — تنقى النفس من العمى والصمم ، وتساعد على إدراك الحق ، فلا تكن من الفريق الذى يقلل من قيمتها لأنها عديمة الفائدة العملية » (١) وهو على هذا الأساس يحكم أن لا يتعلم الناس فى جمهوريته شيئاً غير طائفة العلوم التى تقوى ملكات النفس وتجذب العقل من دائرة العالم المادى المحسوس إلى الحقيقة الكلية ، وهى الجمباز والفلسفة والحساب والهندسة بفروعها المستوية والفراغية والفلك وعلم الحركة والموسيقى (الهارمونيكا) والديالقطيقا (علم البحث المنطقى) .

وقد جعل الجمباز أول العلوم لا لأنه يقوى البدن ويزيد فى القوة الجسدية الغشومة، وإنما لمجرد أنه يكسب النفس الشجاعة التى تجعل الاندفاع وسطاً بين تهور الحيوان المتوحش وجبن الانسان.

أما الفلسفة فيقول عنها: « إنها تاج العلوم وهى ملكتها التى تحمل لها مصباح الحكمة ، وتنفذ بفروضها إلى قواعد العلوم الأولية فتربطها وتقيمها على دعامة ثابتة . فاذا كانت عين النفس مدفونة فى حمأة الجهل الوحشى رفعتها برفق إلى سماء الحق ، مستخدمة فى هذا سائر العلوم والفنون ، فالفيلسوف هو الذى يفكر فى جوهر كل شىء على حدة ، ويحدد صفة الشىء الطيب ويستخلصه، ويجرده من كل ما يشوبه، ويدلل على فساد الباطل لا بمجرد الرأى وإنما بحقيقة الوجود ذاتها ، ويسير إلى النتيجة من غير ان يخطىء مرة واحدة ، أو يتخطى حلقة من حلقات التفكير الصحيح . » فالفلسفة لا تنحصر فائدتها فى التفلسف فحسب، وانما هى جمباز للعقل ووسيلة للتخاطب مع الآخرين للتأثير فيهم، ولتعلم الحكمة والعلم والتمييز بين الحق والباطل» ولذلك أشار بتعليمها من البداية ويقول فى هذا على لسان سقراط: «يجب ان يتعلم الشبان والأطفال الفلسفة بما يوافق سنهم ، فنلقنهم مبادئها وهم صغار حتى اذا نمت اجسامهم، ووصلت عقولهم إلى تمام نموها زدناهم منها، وعندما يبلغون من الكبر عتيا نعفيهم من المناصب العامة والخدمة العسكرية ليكرسوا أنفسهم لدراستها والانقطاع لها ، وبذلك نضمن لهم حياة سعيدة على الأرض، وبعد الموت يتوجون حياتهم الماضية بحياة مماثلة لها فى العالم الآخر » (٣) وبلغ من شدة تعصبه للفلسفة أن حظر إسناد الوظائف الهامة ومقاليد الحكم لغير الفلاسفة .... ودلل على وجوب تدريس الحساب أو علم الأعداد بقوله: « إنه العلم الذى لا يستغنى عنه القائد والفيلسوف ، فالقائد ليعد جيوشه ويرتبها ، والفيلسوف ليسمو بها فوق المحسوس المتغير ويتعلق بالحقيق الصحيح ، وبغيره لا يكون تفكيره مستقيما ، ولذلك يجب فرض تعلمه فرضا على كل من يسند إليه شىء من مهام الدولة . على أن لا يكون الغرض منه استخدامه فى البيع

(١) جمهورية أفلاطون: طبعة دافيس وفوجان الانكليزية ١٩٢٥ — ص ٢٥٢.
(٢) افلاطون : هيلينيكا ص٢٧٩.
(٣) الجمهورية :ص٢١٦ .

والشراء كما يفعل التجار والعامة ، وانما لتهذيب النفس والذكاء والبحث عن الحقيقة المتمثلة فى حدود الاعداد المجردة ، ولعلك لاحظت يا(جلوكون) ان الذين يتفوقون فى الحساب هم عادة سريعو الادراك فى كل العلوم الأخرى بغير استثناء ، وكذلك ضعاف العقول إذا تعلموه وتمرنوا عليه تقدموا فى الفهم بأسرع مما كانوا عليه ولولم يستفيدوا منه أية فائدة عملية »(١) وأوصى بأن تكون القضايا الحسابية شغل شباب اليونان الشاغل،لأن الحساب العقلى يشحذ الفكر وينبه النفس النائمة الجاهلة .

أما الهندسة فتجذب النفس نحو الحقيقة ولذلك يكون الدارس لها أسرع فهما من سواه (٢) والفلك يصرف النظر عن هذا العالم المادى إلى عالم الروح الآخر بشرط أن يصرف النظر عن الكواكب والأجرام السماوية ذاتها، فلا ينحصر هم المتعلم فى ملاحظتها وحساب مداراتها ومرورها فى افلاكها كما يفعل العامة وجهلاء الفلكيين (٣)

أما الموسيقى فهو يدلل على مبلغ أهميتها وأثرها فى تهذيب النفس بقوله:« إنها تغوص فى اعماق النفس،وتستحوذ عليها، وتشعرها بالانسجام والتناسق وتكسبها جمالا كجمال الموسيقى ومقدرة على تقدير جمال الفن فى مناظر الطبيعة والذوق السليم ، فيصير الانسان شهما ، وبعدئذ يصير حكيما عاقلا » (٤) .

ولم ينفرد(افلاطون) بهذا الرأى فقد وضعها(ارسطو) و(ارسطوفانيس) على رأس العلوم المهذبة للعقل والخلق ، واعتبروها أساساً للحياة السامية ، فليست هى فى نظرهم جمبازا للاذن والحنجرة فقط ، ولكن للروح : لأن(الهارمونيكا) والتوقيع ينفذان إلى قرارة النفس وينبهانها من غفوتها، وباتحادهما بالشعر يقودان النفس الى الفضيلة ، ويبثان فيها الشجاعة ، وبواسطتها يحكم العقل حكما صحيحاً فى كل القضايا المنطقية المعقدة . واعتبرها افلاطون الصفة الثامنة المتممة لصفات الفيلسوف الكامل المفروض فيه ان يكون ذا مزاج موسيقى منظم منسجم .

فأفلاطون اذن لم يكن يقدر العلوم من ناحيتها النفعية وانما من ناحية تهذيب النفس ، أى انها لم تكن فى نظره سوى جمباز يقوى ملكات النفس وقواها المتعددة ، كما يقوى البدن بالألعاب الرياضية .

اليونان :

تأثر اليونان بمذهب أفلاطون النظرى وخلبت ألبابهم فكرة التهذيب وجمباز النفس فطبقوه عمليا،وغالوا فى تطبيقه وجعلوه أساساً للتربية العامة فضحوا بالعلوم والفنون العملية ، وحتى

(١) الجمهورية ص٢٤٩ ـ ٢٥٠.
(٢) » ص٢٥٢.
(٣) » ص ٢٥٤ — ٢٥٦ .
(٤) » ص٢٥٤— ٩٦٠.

الكتابة والقراءة والحساب على مذيح الفضائل الانسانية : حب الوالدين، والاخوان ، والشجاعة والصبر، وضبط النفس التى تكتسب عن طريق الألعاب الرياضية والفلسفة (١) . ولكنهم أعطوا الأولوية للجمباز الذى يقوى البدن ، والموسيقى التى تغذى الروح، واعتبروا الأجرومية متممة للموسيقى، وبعدئذ أدخلوا من العلوم سبعة سموها الأسنيكلوبيا أو كما سماها (سنيكا) الفيلسوف « أوربيس دوكترينا » (٢) وهى الأجروميـة والخطابة (ريطوريقا) والفلسفة ، وسموا هذه المجموعة الثلاثية (تريفيوم) والموسيقى والهندسة والفلك و(الديالقيطيقا) وسموها (كوادريفيوم) وقد بلغ من تأثرهم بفكرة الفضيلة والحقيقة انهم فضلوا القيثارة على المزمار من ناحية الموسيقى لأن الأولى أساس الحكمة والخلق الحسن ، أما الثانية فأداة الفساد والكسل، وحتى الألعاب الرياضية اعتبروها وسيلة لتهذيب النفس قبل البـدن، ولذلك تهافتوا على تشجيع الهواة بقدر ما نبذوا المحترفين حتى انطفأ نجمهم فى عهد بركليس وهاجمهم (يوريبيدوس) هجوما عنيفا.

الرومان :

وقفى الرومان على أثرهم فاقتبسوا نظامهم وكذلك لغتهم حتى فضلوها على اللاتينية ، ويكفى ان شيشرون خطيبهم نادى بأن اليونانية من الزم ما يكون لشباب روما، وأوكل تربية أولاده لأساتذة من اليونان يعلمونهم الفلسفة والخطابة . وكذلك فضلها (كنتليان) زعيم التربيـة فى روما على اللاتينية وأشار بضرورة تدريسها قبلها، ولكنهم أضافوا الشعر الى قائمة العلوم لأنه يقوم الخلق ويصقل العقل، فأقبلوا على حفظ شعر (ليفيوس اندرونيكوس) باللاتينيـة واوديسيا هوميروس باليونانية وكذلك مقطوعات من كلام نيرجيل وشيشرون . وكذلك جعلوا للخطابة المقام الأول بين العلوم حتى حلت عندهم محل الموسيقى عند اليونان . واعتبروا الفلسفة بفروعها: المنطق والاخلاق ودراسة الطبيعة متممة لها . ثم انحصرت كل الدراسة فى اللغة اللاتينية حتى أصبحت فى القرون الوسطى — قرون الفروسية والاقطاع — الأداة الوحيدة للتعليم .

وتطورت مذاهب التربية وظهر جماعة الانسانيين الذى نادوا بأن الغرض من التربية يجب أن يكون مجرد تثقيف الفرد، وإعداده ليكون انسانا ، فلم يسلموا من الوقوع فى هـذا الخطأ حتى كومينيوس زعيمهم نادى بأن العلوم التى تعلم فى المدارس يجب أن يكون الغرض الأساسى منها هو تقوية قوى النفس أو ملكات العقل الرئيسية، وهى الادراك والارادة والذاكرة والشعور . ولذلك اقتصر على تدريس الاجرومية والديالقطيقا والمنطق (علوم التريفيوم الرومانية) والموسيقى والحساب والهندسة والفلك . وتدرج فى تربية الأطفال ليقوى فيهم الادراك أولا ثم الذاكرة فالحكم، أما ايراسموس فجعل همه منصبا على تقوية ملكة الذاكرة، ولكن كان يعمد الى حمل التلاميذ على حفظ

(١) هيلنكا . ص ٩٧

(٢) OrbisD ocrtinae

جداول متنوعة معلقة على حوائط المدرسة. وكذلك أشار (كومينوس) بأن يكون عمل المدرسة الابتدائية قاصرا على تقوية الذاكرة والخيال، والثانوية الحكم، والجامعة الارادة . ولكنه اعطى الاجرومية اهمية كبرى كأداة لتمرين العقل فكان يقول: « لا أتصور أن أحدا ما يعترض على عنايتي بتدريس الاجرومية اللاتينية لأنها مفتاح كل العلوم »(١) وكذلك جعل (كانت) الفيلسوف (ولو انه لم يكن من رجال التربية) الغرض الاساسي للتربية تمرين ملكات الطفل حتى يصل الى ادراك الحقيقة وصحة الحكم عن طريق الرياضيات والعلوم الفلسفية . وزاد على هذا هربارت زعيم المدرسة الألمانية: أن العلوم التي تعلم هي التي تقوى الاحساس والذاكرة والحكم والارادة، اما المعلومات ذاتها فلا قيمة لها، لأن قوة الانسان لا تتمثل فيما يعرفه وانما في ارادته.

(يتبع) محمد مظهر سعيد

مادية الغرب وروحانية الشرق

(بقية المنشور على الصفحة رقم ١١٩٥)

الروحانيات أما كان الأجدر به أن يقوم المعنويات اكثر مما يقوم الماديات ؟ اما كان الأليق لفلسفة الشرق أن يفوق الشرق في تضحيته وفي اجلاله للروح والمعاني؟ فما بالنا نراه انغمس في المادة إلى اعلى شعرة من رأسه ، فاذا دعي إلى معنى او روح ولى مدبراً ولم يعقب ؟

لعل مرضا ذريعا فتك به فرده من أعلى عليين إلى اسفل سافلين ، ولعل ماحاق بالشرق من احن وآفات أضعف نفسه وروحه وبدله خلقا آخر .

ولكن هل هو سيف صدأ يمكن ان يجلى، وجسم انتابته علة يمكن ان يبرأ منها، وعود جف ظاهره من العطش ولا يزال مستعدا ان يزهر اذا سقي، او هو شجرة ماتت ومرت عليها العصور والاعاصير فتحجرت ، وجسم ادركته العلل الخطيرة من كل جانبه فلا امل في شفائه ؟

نحن إلى الأول أميل .

إن كان كذلك فما نوع المرض الذي انتاب روحانيته ، وما تشخيصه ، وما أعراضه ، وما دواؤه ؟ لعل كتاب « المعرفة » يعاونون في الاجابة على هذه الأسئلة

احمد أمين

(١) راجع مؤلفات Debactica Magra